

العناصر الجمالية للمكان في قصة يونس -عليه السلام-

The aesthetic elements of the setting in the story of Yunus -peace be upon him-

د. كاتب أمين*

جامعة جيلالي لباس- سيدي بلعباس (الجزائر)

kateb2038@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/05/25

تاريخ الاستلام: 2025/11/18

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمية المكان، وجماليته في القرآن الكريم بوصفه حقيقة كونية لا يدركها إلا الإنسان من خلال حياته اليومية. حيث هو ليس مدركا بصريا ساكنا، بل أعطاه القرآن الكريم مساحة فنية هامة خصوصا في قصص الأنبياء. ومنها قصة يونس عليه السلام عن طريق الإعجاز البياني والبنائي؛ فاسحا المجال أمام الخيال ليكمل الفجوات وبقيّة التفاصيل، والعناصر المتعلقة أساسا بهذه الأماكن.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ المكان؛ يونس عليه السلام؛ الجمالية.

Abstract:

This study aims to show the importance of the place and its beauty in the Quran. It describes it as a universal reality which can be realized only by man through his daily life. It is not visually conscious but the Holy Quran gave it an important artistic space especially in the stories of the prophets including the of Yunus peace be upon him through the miraculous geographic and structure making way for imagination to complete the gap and the rest of the detail and elements related mainly to this place.

Keywords: Quran; the place; Yunus peace be upon him; aesthetic.

1. مقدمة:

تُعد قصة نبي الله يونس عليه السلام من أبرز القصص القرآنية التي تحمل رسائل دينية وعبرًا تربوية للبشرية. فهي لم تقتصر على سرد الأحداث فحسب، بل أولت اهتمامًا بالغًا بعناصر السرد المختلفة، ولا سيما المكان الذي يشكّل إطارًا حيويًا لتطور الأحداث وتفاعل الشخصيات. فقد تنقل النبي بين عدة مواقع متباعدة، بدءًا من القرية، مرورًا بالسفينة، ثم بطن الحوت، وأخيرًا العراء، وهو ما أتاح للقرآن أن يوظف المكان ليس كخلفية جامدة، بل كعنصر فاعل يُبرز حالات الخوف والأمن، والاستقرار وعدم الاستقرار، ويُقدم دروسًا دينية وجمالية في آن واحد. إن دراسة هذه الأماكن وتحليلها يساعد على فهم أعمق للغرض القرآني من القصة، ويُظهر براعة الأسلوب السرد في الجمع بين الحكمة الروحية والجمال الفني.

ويؤدي المكان في القصة دورًا نفسيًا ووجدانيًا مهمًا، إذ يعكس الحالة الداخلية للنبي عليه السلام ويجسّد الصراع بين اليأس والأمل، وبين الإيمان والثقة بالله. فالمكان هنا ليس مجرد فضاء مادي، بل أداة بلاغية تُتيح للقارئ أو المستمع أن يعيش تجربة النبي الروحية والشعورية، فيشعر بمعاناته وحيرته، ويُدرك محنة الابتلاء وصعوبة الظروف التي واجهها، بما يعكس قدرة الله المطلقة في التدبير والإحاطة بجميع الأمور. فبين حيز السفينة المغلقة وبطن الحوت الضيق، وبين العراء المفتوح، تتنوع مستويات التوتر النفسي والتجربة الروحية، لتجعل من القصة درسًا حيًا في الاعتماد على الله، والصبر، والثبات، والثقة في رحمة الخالق.

وعلاوة على ذلك، يكتسب المكان بعدًا تربويًا مهمًا، إذ يقدم نموذجًا عمليًا للمتلقين حول كيفية مواجهة الشدائد والابتلاءات. فتغير المكان ليس مجرد انتقال جغرافي، بل وسيلة قرآنية لعرض مراحل التطهير الروحي والنمو النفسي للنبي عليه السلام، وهو ما يتيح للقارئ استخلاص معانٍ عميقة عن التوبة والخلاص والنجاة من المواقف الصعبة. كما أن تنقل النبي بين هذه الأماكن يُظهر كيف يمكن للمؤمن أن يجد في كل مكان درسًا، ويستفيد من كل ظرف، ويحول المحنة إلى تجربة تثقيفية وعاطفية، مما يجعل القصة مدرسة أخلاقية وروحية متكاملة، تُعلم الصبر، والمتابعة، والثقة بالله، وتُحفّز على التأمل في قدرة الخالق وحكمته.

ومن زاوية بلاغية، يعكس الاهتمام بالمكان في القصة القرآنية براعة الأسلوب القرآني في استخدام الصور الحسية والمكانية لتعميق المعاني الروحية. فالمسافة بين القرية والحوت، وضيق البطن مقابل اتساع العراء، لا تعكس فقط الأحداث الخارجية، بل ترمز إلى حالة الروح الداخلية للنبي، وتُعبّر عن الصراع بين الخوف والرجاء، وبين الحيرة واليقين، لتصبح الأماكن جسورًا تربط بين الواقع المادي والعالم الروحي، وتُحوّل السرد إلى تجربة تعليمية متكاملة، يستطيع كل قارئ أو مستمع أن يشارك فيها شعوريًا وعقليًا، ويستمد منها العبر والدروس العملية للحياة اليومية.

2. يونس عليه السلام وقومه:

قصة نبي الله يونس عليه السلام وردت أربع مرات في القرآن الكريم، وتعد من أبرز القصص التي تحمل دروسًا عميقة في الدعوة إلى الله، والصبر على الابتلاء، والرحمة الإلهية. أرسل الله تعالى يونس عليه السلام نبيًا إلى

قومه في مدينة نينوى الواقعة في أرض الموصل حاليًا بالعراق، والتي كانت آنذاك مدينة كبرى مأهولة بالسكان. وذكر القرآن أن عددهم كان مائة ألف أو يزيدون، وقال ابن عباس رضي الله عنه: "كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا وبضعة وثلاثين ألفًا".¹

كانت دعوة يونس عليهم السلام تهدف إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، حيث بيّن لهم أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وحثّهم على العدل واتباع الإسلام، وحذرهم من الظلم والكفر. ولكن قومه رفضوا دعوته وأصروا على معصيتهم، فخرج عليهم غضبًا وساخطًا، كما جاء في القرآن: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾.²

وفقًا لما ذكره الصحابة مثل ابن مسعود، فإن الله تعالى بعد خروج يونس من بينهم قد سلط عليهم العذاب، ولكن رحمته وسعت قلوبهم فأدخل الله التوبة والإنابة في نفوسهم، فندموا على ما كانوا عليه من الكفر والظلم، وتوجهوا إلى نبيهم بالاستغفار والرجوع عن معاصيهم. وعملوا شعائر التوبة بكل إخلاص: لبسوا المسوح، وراعوا العناية بالحيوانات، ففرقوا بين كل بهيمة وولدها، وساروا في طريق البر والخير، وبكوا وصرخوا وتضرعوا إلى الله بصدق وإخلاص. وقد امتدت آثار توبتهم لتشمل البشر والدواب على حد سواء، فقد شعرت الحيوانات بالرحمة والتقدير، وتوقفت عن المعاناة التي كانت ستلحق بهم بسبب العصيان.

لقد أنقذ الله تعالى قوم يونس من العذاب بعد توبتهم، وقد بين القرآن الكريم فضل هذه التوبة وأثرها العظيم على حياة الإنسان والمجتمع: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْنَةً فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾³، أي أن توبة قوم يونس كانت استثنائية، إذ لم تشهد البشرية قبلهم أمة آمنت بكاملها.⁴

من الناحية الجغرافية والتاريخية، بقي تحديد مكان مدينة نينوى بدقة أمرًا نسبيًا ومحل بحث، إذ تشير المراجع التاريخية إلى أن نينوى كانت مدينة عظيمة على ضفاف نهر دجلة في شمال العراق، وكانت عاصمة للآشوريين ومركزًا حضاريًا وتجاريًا مهمًا. وقد تتيح هذه الخلفية التاريخية فهم حجم الدعوة التي قام بها يونس عليه السلام، ومدى التحديات التي واجهها في تبليغ رسالته إلى قوم عنيدین ملتزمين بعبادة الأصنام. القصة تحمل في مجملها عبرة عظيمة: قوة التوبة والإنابة، رحمة الله التي تتجاوز العقوبة، وأهمية الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك التأكيد على أن الهداية الكاملة قد تُمنح لقوم بأكملهم في لحظة استجابة صادقة، وهو ما يميز قصة يونس عليه السلام عن غيرها من قصص الأنبياء.

3. أحداثيات المكان في القصة:

يحتل المكان في السرد القصصي مركزًا محوريًا، إذ لا يقتصر دوره على كونه أحد العناصر الفنية أو الإطار الذي تجري فيه الأحداث ويتحرك من خلاله الأبطال، بل يتجاوز ذلك ليصبح حاضرًا لجميع العناصر الأخرى، مساهمًا في توليد السرد وصياغته.⁵ ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن السرد لا يكتمل إلا بالمكان، إذ يشكل

نتائجاً للسرد وفي الوقت نفسه عاملاً في توليده. ولذا نجد أن السرد يخلق فضاءات تخيلية تمنح الأحداث واقعية وإيحاءً، إلا أن السرد القرآني يختلف عن هذا النهج؛ فهو يرسم فضاءات حقيقية لا تحتاج إلى إثبات صدقها، لأنها مرتبطة مباشرة بغرض القصة، وهو تحقيق المغزى القرآني وتعزيز رسالة النص في ذهن المتلقي بطريقة مؤثرة تفعل كلاً من العقل والخيال معاً.⁶

فالقرآن لا يورد القصص لمجرد التسلية أو تسجيل التاريخ، بل للعظة والتدبر واستخلاص العبر.⁷ وفي قصة يونس عليه السلام، نجد تضافر كل عناصر السرد -الأحداث، الشخصيات، الحبكة، الصراع، الزمن والمكان- لتخدم الفكرة المركزية للقصة. وتتميز هذه العناصر بواقعيته وصدقها، مما يجعل مغزى القصة منطقياً ومقبولاً. ويبنى الحكم على القصة من خلال فكرتها وهدفها، وكيفية توظيف عناصرها المختلفة، فتنبثق القيم وتحقق الإثارة والتشويق.⁸

المكان في قصة يونس عليه السلام كان متعدد الأبعاد وذو أهمية بارزة في السرد، إذ شكّل فضاءً حقيقياً مؤثراً في مجرى الأحداث.⁹ فهو يشمل جسد النبي البطل، ولم يغفل السرد القرآني اهتمامه بهذه الشخصية المحورية، فصورها في أبهى صورها. تشمل أماكن القصة: القرية، السفينة، البحر، بطن الحوت، العراء، ونمو شجرة اليقطين. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَكَبِتَ فِي بطنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾¹⁰، وأيضاً: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.¹¹

وقد فسّر ابن كثير اليقطين في كتابه *البداية والنهاية* بأنه شجرة دبّاء، وذكر أن الله أمد النبي بما يحتاجه من موارد طبيعية لينجو، وهو ما أكدّه أبو هريرة وابن مسعود.

ويلاحظ في السرد القرآني تنازع مكونين سرديين: **العوامل والمكان**، بما يقتضيه الإيجاز والإعجاز. والمكان في القرآن، كما ورد في الفصل السابق، يُقسّم إلى ثلاث فئات:

- **أماكن واقعية ذات مرجعية:** جغرافية أو تاريخية.
 - **أماكن غيبية:** لا مرجع لها في الواقع.
 - **أماكن عجائبية:** مرتبطة بالمعجزات والسرد العجائبي، مثل بطن الحوت أو العراء.
- تحليل المكان يتيح فهم الدلالة الشاملة للسرد، إذ يمكن الكشف عن **التقابلات المكانية**¹²، وهو مفهوم أشار إليه يوري لوتمان، حيث يوضح أن المكان يتشكل أحياناً على شكل ثنائيات متعارضة تعكس العلاقة بين الفاعل وأفعاله (الاتصال أو الانفصال).¹³

أما التقاطب، فيشير إلى وجود قطبين متعارضين في المكان وفق تقابلات ضدية، أو بمعنى آخر إلى الثنائي بين المتصل والمنفصل. وهذا المفهوم يتماشى مع أسس السيميائيات التي تعتبر التشابه والاختلاف محوراً أساسياً لفهم المعنى، إذ يُفترض أنه لا يمكن إدراك المعنى إلا من خلال رصد الفوارق في مستويات التعبير والمحتوى، والفوارق هذه لا تُفهم إلا ضمن سياق من التشابه.¹⁴

وبناءً على هذا الفهم، يمكن تقسيم وعي المكان (سواء المرجعي أو العجائي) إلى أماكن مستقرة وآمنة وأماكن غير مستقرة ومرعبة، فهناك أماكن يرفضها الإنسان وأخرى يفضلها، وكما يمكن للبيئة أن ترفضه أو تحتضنه، فإنه -وفق حاجاته- يزدهر في بعض الأماكن ويضعف في أخرى.¹⁵

ويظهر هذا التصور عند باختين، الذي قسم المكان إلى أربعة أنواع وحدد لكل منها اسمًا بحسب دوره في الرواية: المكان الداخلي، المكان الخارجي، المكان المعادي، و"فضاء العتبة" الذي يمثل ممرًا لانتقال البطل بين الأماكن¹⁶. وما يهمنا هنا بالذات هو المكان الخارجي والمكان المعادي، الذي يمثل ممرًا لانتقال البطل بين الأماكن. وفي قصة يونس، يمكن تصنيف وحدات الأفعال والمكان كما يلي:

نوع المكان	نوع التقاطب	وحدات الأفعال
مرجعي تاريخي	اليابسة / آمن	الإرسال إلى القوم
مرجعي تاريخي	اليابسة / آمن	الإباق من القرية
مرجعي	السفينة / خوف	المساهمة في السفينة
عجائي	بطن الحوت / خوف	الالتقام
عجائي	العراء / خوف	النبد على اليابسة
عجائي	اليابسة بعد نمو اليقطين / آمن	إنبات اليقطين

يتضح من هذا الجدول أن السرد يبدأ بالمكان الآمن وينتهي بالمكان الآمن، مع توازن بين أماكن الخوف والأمن. فاليابسة تمثل الثبات والاستقرار، بينما السفينة، و بطن الحوت، والعراء، تمثل أماكن الخوف والتهديد، ما يعكس التباين بين الأمان والاضطراب، وهو ما يضفي على القصة عمقًا دراميًا وسرديًا يعزز مغزاها القرآني.

4. أنواع المكان في السرد القصصي للقصة:

أ/أماكن عدم الاستقرار (الخوف): وتتمثل في الفلك و بطن الحوت والعراء.

1.4 الفلك المشحون:

وردت كلمة "فلك" في القرآن الكريم بـ 25 موضعا، كلها بمعنى السفينة عدا واحدة منها. المعنى اللغوي: فلك "مدار النجوم، والجمع أفلاك... وفلك كل شيء مستداره ومعظمه. وفلك البحر: موجه المستدير المتردد. قال بعض العرب: الفلك هو الموج إذا ماج في البحر فاضطرب وجاء وذهب... وتفلك: استدار..¹⁷ من هذا التعريف نكتشف أن الفلك شيء مستدار متحرك.

تختلف السفينة عن الفلك، وقد وردت كلمة سفينة في القرآن الكريم في أربعة ولم ترد جمعا.

جاءت مواضع ثلاث منها في قصة موسى -عليه السلام- مع الخضر "الرجل الصالح" والموضع الرابع في قصة نوح -عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾¹⁸.

إن وصف الفلك بالمشحون، والعدول عن السفينة إلى الفلك، "والفلك المشحون السفينة الموقرة الممتلئة"¹⁹، وهو ما يشير إلى كِبَر حجم السفن مقارنة بالقارب؛ فلِعِظَم الفلك كانت تُذكر في سياقات تُبرز قدرها، وما تحمله من ركاب ومتاع²⁰، ووصف الفلك بهذه الصفة موثمة ومؤكدة لمفهوم الفلك المفارق للسفينة، يُذكر لفظ "الفلك" كثيراً في القرآن، مع الإشارة إلى سيرها في البحر واجتيازها لأمواج الريح²¹.

أما السفينة في القرآن الكريم فقد ورد ذكرها مقرونة بالنجاة، حاملة إبحاءً بأنها أُعدت لتكون وسيلة للنجاة والحفظ²² كما نجد ذلك في قصة سيدنا نوح عليه السلام قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾²³، فالعامل المساعد -السفينة- التي لجأ إليها النبي عليه السلام البطل عظيمة الحجم مليئة بالركب والمتاع مما يجعل هذا المشهد استباقاً متوقعاً لحدوث الخطر، فالفلك مكان غير مستقر مخوف فيه اضطراب نفسي وقلل من المجهول خصوصاً وهي فوق البحر المفتوح ولا محدود فهو مكان مجهول وأيضاً مخوف.

وما يُلحظ في سياق استعمال القرآن للفلك أنه يقترب غالباً بآيات القدرة والإعجاز؛ فهي تجري بأمر الله، وتسير فوق لجج لا يملك الإنسان لها توجيهاً إلا بما سخر الله له من علم وهداية. وهذا الارتباط بين الفلك وبين مظاهر التسخير الإلهي يفتح باب التأمل في حدود القوة البشرية، وكيف يبقى الإنسان - مهما بلغ من المعرفة - محتاجاً إلى عناية الله في كل رحلة يخوضها، ظاهراً في البحر وباطنها في مجرى الحياة. ولذلك جاءت الآيات تذكّر بأن حركة الفلك ليست مجرد ظاهرة مادية، بل علامة على القدرة التي تحفظ الكون وتدبره.

ثم إنّ التفريق القرآني الدقيق بين "الفلك" و"السفينة" ليس مجرد تنوع لغوي، بل يحمل دلالة فنية تُثري المشهد القصصي وتكشف عمق التجربة الإنسانية. فالسفينة رمز النجاة والطمأنينة حين يشتد الخطر، أمّا الفلك فمشهد الاتساع والحمل الثقيل والإبحار في المجهول. وبذلك يجمع القرآن بين المعنيين ليصوّر حالة الإنسان بين الخوف والرجاء، وبين الاضطراب والثقة، وليُظهر كيف تُصبح أدوات الحياة - على اختلاف أحجامها ومقاصدها - جزءاً من سنة الله في الابتلاء والتمكين، ووسيلة لفهم العلاقة بين الإنسان وربّه في مجاهل البحر ورحلة الوجود كلها.

2.4 بطن الحوت:

عدد الورد: وردت كلمة "بطن" في القرآن الكريم مرتين. بطن مكة، وبطن الحوت. وجاءت في مواضع أخرى عددها 17 موضعاً مضافة إليها الأمهات من الإنس و الجن، كمكان للعيش والاحتواء والرعاية. المعنى اللغوي: "الباطنة من البصرة والكوفة: مجتمع الدور والأسواق والضاحية: ما تنحى من المساكن وكان بارزاً. وبطن الأرض وباطنها، ما غمض منها واطمأن. وبطن من الأرض: الغامض الداخل... ابن شميل: بطنان الأرض ما توطأ في بطون الأرض سهلها وحزنها ورياضها وهي قرار الماء ومستنقعها"²⁴.

أورد ابن كثير في البداية والنهاية كيف التقم الحوت سيدنا يونس عليه السلام ذكر: "لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجّت بهم واضربت وماجت بهم وثقلت بما فيه، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون. قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية، فوقت عليه أيضا فشمّر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثا فوقعت عليه أيضا لما يريد الله به من الأمر العظيم قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾²⁵. ... وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر وبعث الله عز وجلّ حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا تأكل له لحما ولا تهشم له عظما، فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها، وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه، فتحرّكت فإذا هو حي فخرّ لله ساجدا وقال: يا رب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد مثله.

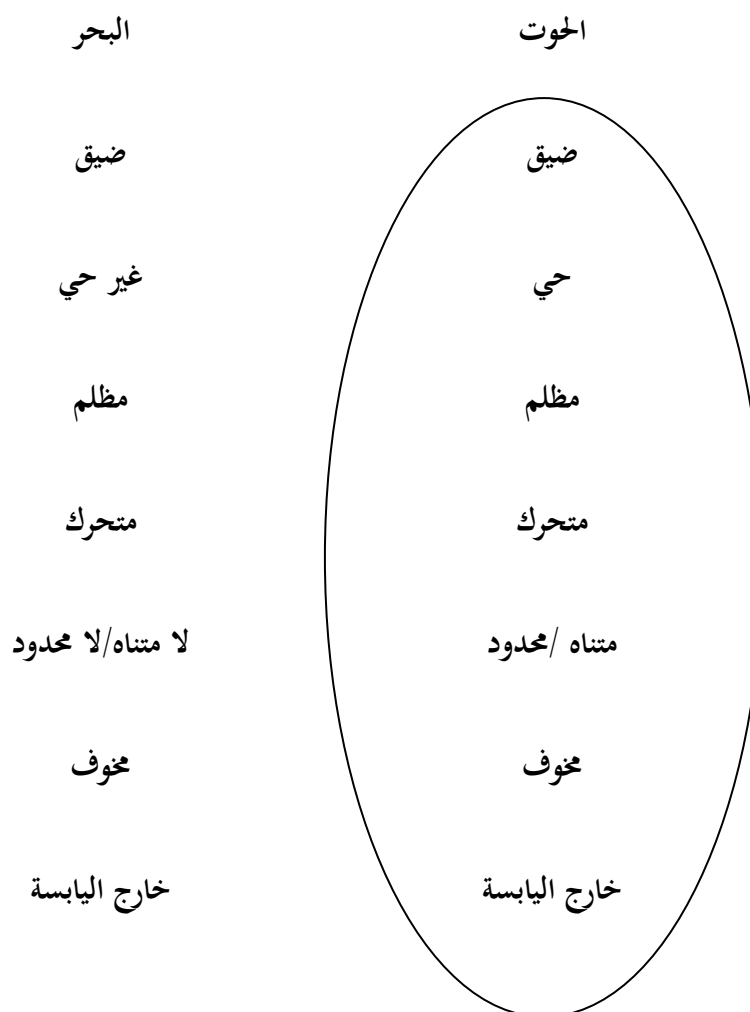
وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. فقال مجالد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية. وقال قتادة: مكث ثلاثا. وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد مات في أضعاف حوت لياليا²⁶

الفائدة الجمالية: أحد الأماكن المخوفة المقلق الغامضة والمجهولة التي يتنازعها أكثر من مكون سردي، فهو فضاء شديد التميز والعجائية، وعامل ضد في الوقت نفسه، وهي خصوصية للسرد القرآني سبق الإشارة إليها في دفع مكونات السرد إلى التلاحم بين شقي القصة والخطاب وهي من خصائص السرد القرآني وهو بذلك يخدم جوهرية محددة، ومع ما تحتويه من قيم دلالية عالية، فهي تتوشح بمسحة جمالية لا يمكن إدراكها بسهولة ويسر، وهو ما لا تنكره بصيرة، ولا يستطيع العقل إنكارها، ولا يقدر فيه إنسان، مكونة صعوبة شديدة في فصل تلك العناصر حال مقاربتها.

والحوت/النون علمان مترادفان للفضاء ذاته، فالأول لازم مواضع اللوم والعتاب كما في سورتي الصافات والقلم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾²⁷. وقال تعالى في سورة القلم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنَّنَا تَذَارِكُهُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾²⁸، والثاني جاء في موضع الثناء سورة الأنبياء قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾²⁹. قال ابن مسعود، وابن عباس...: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر، وظلمة الليل وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة بطن الحوت.³⁰ وهو مكان عجائبي يتسم بالخوف والقلق والضيق والظلام وعدم الاستقرار والتناهي، في فضاء البحر المتسع، والمظلم، والمتحرك، والغير المحدود، والمخوف غير

متناهي، فهذا التشاكل والتبيان في المكانين من ضيق واتساع وقد أدى هذا إلى ارتفاع حدة الموقف وتأزمه، فالبطل النبي عليه السلام محبوس في مكان مظلم كائن في بحر مظلم وليل مثلهما مما يزيد حدة خوفه واغتمامه "فنادى في الظلمات" فهو إذن في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت³¹، والمخطط الآتي يبين المتسع والمحدود بين البحر وبطن الحوت:



رغم تشاكلهما في أربع وتغايرهما في ثلاث، إلا أن الخوف يبقى مسيطر وسار ما دامت إرادة الله اقتضت ذلك.

وعوض السرد (بطن الحوت) بـ(جوفه) إشارة إلى استحضر صورة الوليد في بطن أمه وما يصيره من ضعف شديد والحاجة للعون، وحينئذ يستتبعه أن تكون النجاة من مثله ميلاد جديدا للنبي/البطل، ينمي ذلك الفهم أن مادة (ب - ط - ن) لم ترد إجمالا في القرآن الكريم إلا فيما يتصل بالجنين في رحم أمه قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾³². وقال أيضا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ³³. وقال أيضا: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ³⁴. فالظلمات الثلاث بالنسبة للطفل تشابه الظلمات التي كان فيها يونس عليه السلام، فالطفل عاجز وضعيف كذلك حال النبي، ونلاحظ أن الآية انتهت بالتوحيد الذي هو الغرض الأول من القصة.

وعند تتبع هذه الأمكنة نجد أنها تنقله من خوف إلى خوف، ومن حالة معاكسة إلى أخرى، بدءًا بركوبه الفلك الضخم غير المستقر، مرورًا بالبحر اللامحدود، وانتهاءً به في بطن الحوت المظلم، حيث تشتت فيه الأفكار ويضعف التركيز. وفي تلك اللحظة قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه الله ذو العزة والجلال، العالم بالسر والنجوى، والكاشف للضرّ والبلوى، السامع للأصوات وإن ضعفت، والعالم بالخفيات وإن دقت، والمجيب للدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنِّينَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ³⁵.³⁶ إذن بهذه الكلمة تبدد قيد المكان نبعت من قلب محب، وواجه يريد الحرية وهي ليست متعلقة بطبيعة المكان أو تكوينه، بل تكمن داخل الإنسان، الذي يمتلك القدرة على إطلاق هذه الحرية داخليًا لتجاوز قيد المكان³⁷. وبذلك نجاه ربه إلى العراء.

3.4 العراء:

العراء، الفضاء المتسع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَنَبِّذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾، هو المكان القفر الذي يخلو من الأشجار، أي خالٍ من كل ما يغطيه من نباتات..³⁸ وهو المكان الضد لبطن الحوت والبحر في كل خصائصه، وتأتي المصاحبة اللفظية في إيقاع "العراء" من خلال المد اللازم المحقق لخاصية السرد القرآني مزيدا من اتساع العراء عبر مد الصوت بالحركات الزائدة وبالتالي إحساس النبي بالخوف من هذا الاتساع، كما أن الباء الجارة تعمق هذا المعنى فالباء إما أن تكون للإلصاق وهو أصل معانيها أو أن تكون كثيرا في الكلام.

إن العراء في هذه المرحلة من القصة لا يمثل مجرد فراغ مادي، بل هو فضاء رمزي يعكس حالة النبي النفسية بعد خروجه من بطن الحوت. فهو فضاء مكشوف وخالٍ من الحماية الطبيعية، مما يبرز شعور يونس عليه السلام بالوحدة والعجز أمام قدرة الله المطلقة، ويجعل الانتباه لكل تفصييلة في المكان جزءًا من التأمل في حكم الله ورحمته. ومن هذا المنظور، يصبح العراء ليس فقط مكانًا ماديًا، بل أداة سردية لإبراز التوتر النفسي والانتظار، ولإظهار مدى الاعتماد الكلي على الله في الظروف الصعبة.

كما أن اختيار القرآن لكلمة "العراء" بهذا المد الصوتي والحركة الزائدة يعكس بلاغة النص في التعبير عن اتساع المكان واستمرارية الشعور بالخوف. فالمكان الواسع والخالٍ يعكس الصراع الداخلي للنبي بين الخوف والأمل، ويؤكد قدرة السرد القرآني على استخدام اللغة لخلق تجربة حسية ومعنوية متكاملة للقارئ أو المستمع.

وهكذا، يصبح العراء فضاءً حيًا، يتفاعل مع الشخصية ويعكس معاني الرهبة والتجربة الروحية التي يمر بها النبي قبل أن تتحول رحلته إلى مسار للأمن والسكينة مع إنبات اليقطين.

- العراء مع إنبات اليقطين:

تتجلى قيمة الأمن والرحمة الإلهية في تحوّل المكان من فضاءٍ يبعث على الخوف إلى موطنٍ للطمأنينة والعجائية، حيث جاء فعل «أنبت» معبراً عن القدرة والتميز، فكأنّ الطبيعة استجابت لأمرٍ إلهيٍّ مباشر وفوري. كما تتجسد قيمة العناية بالإنسان في اختيار نبات القرع لما يحمله من خصائص نافعة؛ فأوراقه الظليلة الناعمة توفر الحماية، وثمره غذاءً متكامل يؤكل على صور متعددة، فضلاً عما فيه من فوائد صحية كثيرة، مما يعكس مظاهر الرحمة والتدبير الحكيم، وغير ذلك³⁹ يقول الزمخشري: "أنبتنا فوقه مظلة له؛ كما يطنب البيت على الإنسان"⁴⁰. فيكون قوله "شجرة" تجاوزاً خارقاً للمعهود كون اليقطين نبات لا ساق له، والشجرة في اللغة تطلق لما له ساق وعود.

إن هذا المكان العاري مع اليقطين يعكس تحوّلًا نفسيًا وروحياً للنبي عليه السلام بعد تجربته الصعبة في البحر وبطن الحوت، حيث أصبح العراء ليس مجرد فراغ مادي، بل مساحة للسكينة الإلهية والراحة النفسية. فالإنبات الفوري للنبات يرمز إلى رحمة الله العاجلة واستجابته لدعاء عبده، ويعكس أيضًا قدرة الخالق على تحويل أصعب الظروف إلى أسباب للغذاء والحماية والطمأنينة.

علاوة على ذلك، يبرز هذا المكان العجائبي مدى البلاغة القرآنية في توظيف الطبيعة لإيصال المعاني الرمزية، إذ يُظهر كيف يمكن للنبات أن يتحول إلى مأوى وحماية، وكناية عن الرعاية الإلهية للأنبياء والمستضعفين. فالعراء الذي يبدو خاليًا وجافًا يتحول إلى مساحة غنية بالحياة والعطاء، مما يعكس درسًا تربويًا عميقًا: أن الطاعة والدعاء والعمل الصالح يمكن أن يخلق الأمن والرزق حتى في أكثر الأماكن قسوةً وخوفًا.

5. خاتمة:

تجسد قصة يونس عليه السلام العلاقة الوثيقة بين المكان والسرد القرآني، حيث يتحول المكان من مجرد إطار للأحداث إلى عنصر فاعل في تطور القصة وبناء معانيها. فمن خلال التنقل بين أماكن الخوف والأمن، والمرجعي والعجائبي، يعرض القرآن الكريم مواقف النبي عليه السلام وتجارب قومه بطريقة تجمع بين العظة والإعجاز البلاغي، وتكشف عن حكمة الله ورحمته. وفي النهاية، فإن تحليل المكان في هذه القصة يعمّق فهمنا لدور السرد القرآني في توصيل الرسائل الروحية والأخلاقية، ويبرز كيف يمكن للفضاء أن يصبح شاهدًا حيًا على معاني سامية وعبر خالدة.

إن دراسة تأثير المكان في القصة تتيح أيضًا فهمًا أعمق للحالة النفسية للنبي عليه السلام أثناء المواقف المختلفة، فقد شكل البحر والظلام في بطن الحوت رمزًا للشدائد والاختبار، بينما جسّد الخروج والنجاة بعد

الدعاء والتوبة لحظة الانتصار الإيماني والطمأنينة. هذه الحركة بين أماكن مختلفة تعكس رحلة الإنسان بين المحن والفرج، وتؤكد على أن المكان في السرد القرآني ليس مجرد خلفية، بل أداة تعليمية تحمل دلالات رمزية وروحية. علاوة على ذلك، يساهم تحليل المكان في إبراز البلاغة القرآنية وفن السرد، حيث يُظهر كيفية توظيف القرآن للفضاء الزماني والمكاني في بناء الإثارة والتشويق، وإيصال الرسائل بأسلوب بليغ وموحي. فالمكان يصبح بذلك شريكاً في السرد، يشارك في تشكيل تجربة القارئ أو المستمع، ويجعل من القصة تجربة حية يمكن أن تترك أثراً نفسياً وروحياً طويل الأمد، يعزز من فهمنا للعبارة ولحكمة الله في إدارة أحداث الحياة.

5- الهوامش:

- ¹ ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، دار ابن حزم، ص152.
- ² الأنبياء، 87.
- ³ يونس، 98.
- ⁴ ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص153.
- ⁵ ينظر، شارل كريفل، الفضاء الروائي، تح: عبد الرحيم حزل، إفريقيا، الدار البيضاء: 2002، ص74.
- ⁶ ينظر، سليمان عشراقي، الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمال السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998م، ص69.
- ⁷ ينظر، عبد الحليم حنفي، أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة: 2000م، ص91.
- ⁸ ينظر، أبو شريفة عبد القادر، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ط4، دار الفكر، عمان: 2008، ص124.
- ⁹ ينظر، محمد ناصر العجمي، في الخطاب السرد، "نظرية غريغاس"، الدار العربية للكتاب، تونس: 1993، ص ص40-43.
- ¹⁰ الصفات، من 139 إلى 145.
- ¹¹ الصفات، 146.
- ¹² ينظر، حسن مجراوي، بنية الشكل الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي: 1990، ص33.
- ¹³ ينظر، المرجع نفسه، ص ص33-34.
- ¹⁴ ينظر، دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيموطيقا)، تح: شاعر عبد الحميد، أكاديمية الفنون، دراسات نقدية، ص ص3-19-20.
- ¹⁵ ينظر، يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، تر: سيزا قام دراز، مجلة المقالات، ع8، 1987، ص83.
- ¹⁶ ينظر، شريط أحمد شريط، بنية الفضاء في رواية غذا يوم جديد، مجلة الثقافة، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ع 115، 1997، ص158.
- ¹⁷ ابن منظور، لسان العرب، ج13، ط3، دار الاحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان: 1999، ص254.
- ¹⁸ العنكبوت، 15.

- ¹⁹ الحافظ جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ص25.
- ²⁰ ينظر، محمد ياسر خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص125.
- ²¹ المرجع نفسه، ص125-126
- ²² ينظر، المرجع نفسه.
- ²³ العنكبوت، 15.
- ²⁴ ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص198.
- ²⁵ الصافات، 141-142.
- ²⁶ ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ص152.
- ²⁷ الصافات، من 139 إلى 145.
- ²⁸ القلم، من 48 إلى 50.
- ²⁹ الأنبياء، 87.
- ³⁰ ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص152.
- ³¹ ينظر، الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج9، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص108.
- ³² آل عمران، 35.
- ³³ النحل، 78.
- ³⁴ الزمر، 6.
- ³⁵ الأنبياء، من 87 إلى 88.
- ³⁶ ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص153.
- ³⁷ ينظر، شاعر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: 1994، ص319.
- ³⁸ ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص154.
- ³⁹ ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص154.
- ⁴⁰ الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، ج4، دار المعرفة، بيروت: 1968، ص64.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.

1. ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، (مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، دار ابن حزم).
2. ابن منظور، لسان العرب، ج13، ط3، (بيروت، لبنان: دار الاحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، 1999).
3. أبو شريفة عبد القادر، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ط4، (عمان: دار الفكر، 2008).
4. الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج9، (بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي).
5. الحافظ جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية).
6. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ط1، (المركز الثقافي العربي: 1990).
7. دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيموطيقا)، تح: شاعر عبد الحميد، أكاديمية الفنون، دراسات نقدية.
8. الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجوه التأويل، ج4، (بيروت: دار المعرفة، 1968).
9. سليمان عشراي، الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمال السرد الإعجازي، (ديوان المطبوعات الجامعية، 1998م).
10. شارل كريفل، الفضاء الروائي، تح: عبد الرحيم حزل، (الدار البيضاء: إفريقيا، 2002).
11. شاعر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994).
12. شريط أحمد شريط، بنية الفضاء في رواية غذا يوم جديد، مجلة الثقافة، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ع 115، 1997.
13. عبد الحليم حنفي، أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، ط1، (القاهرة: مكتبة الآداب، 2000م).
14. محمد ناصر العجمي، في الخطاب السرد، "نظرية غريماش"، (تونس: الدار العربية للكتاب، 1993).
15. محمد ياسر خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية).
16. يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني، تر: سيزا قام دراز، مجلة المقالات، ع8، 1987.